

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن الله تعالى يقول: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَنْبَاءِ» (البقرة: ٢٦٩).

الحكمة هي الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع الشيء في موضعه. وقيل: إن الحكمة هي إصابة الحق بالعلم والعقل، وقيل: إن الحكمة مأخوذة من الحُكْم وفُضِّل القضاء الذي هو بمعنى الفصل بين الحق والباطل.

اعداد الشيخ / إبراهيم حافظ رزق

فرع منشأة البكاري

تعالى: «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» (الأحزاب: ٣٤).

كذلك يأتي لفظ الحكمة في القرآن بمعنى الأخلاق الفاضلة التي أمر الله بها سبحانه كما في سورة الإسراء، وبعد أن عدّد مجموعة من الأوامر والنواهي، قال سبحانه: «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا» (الإسراء: ٣٩).

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «ضَمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ».

وقد وردت كلمة الحكمة في القرآن الكريم عشرين مرة، وهي تأتي بمعانٍ منها: القرآن كما في صحيح البخاري: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار» وهو كذلك مروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في البخاري ومسلم، من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري ومسلم أيضاً: «لا حسد إلا في اثنتين.. رجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

وتأتي كلمة الحكمة في القرآن أيضاً بمعنى السنة كما في قوله تعالى: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (البقرة: ٢٣١). وقوله

وفي سورة لقمان يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» (لقمان: ١٢)؛ فهذا العبد الصالح الذي اختلف المفسرون حول شخصيته. وهل هو نبي أم لا؛ خلد الله ذكره في القرآن وسجل سورة باسمه؛ لأنه كان حكيماً، ولقمان وإن كان حكيماً كما وصفه القرآن فإنه لم يصل إلى الحكمة بجهد الشخصي، وإنما آتاه الله الحكمة، وإن الإنسان لا يمكن أن يكون حكيماً إلا بالله تعالى، الذي يقول: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُو الْأَلْبَابِ» (البقرة: ٢٦٩).

ولقمان شأنه شأن الحكماء في إسداء النصيحة والتوجيه لكل من لهم به صلة. فالحكيم يبدأ بنفسه أولاً ثم باقرب الناس إليه كما قال الله موجهاً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (الشعراء: ٢١٤)، وفي قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ما يفيد ذلك: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» (الزخرف: ٢٦).

والحكيم يبدأ بالدعوة إلى التوحيد أولاً، ويحذر من الإشراف في طاعة الله سبحانه كما فعل لقمان: «وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان: ١٣)، وقد قلنا في البداية: إن الحكمة وضع الشيء في موضعه، والشرك ظلم لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فالشرك يعطي حق الله سبحانه في العبادة والخضوع والطاعة لغير الله تعالى، ولذلك كانت دعوة التوحيد هي مفتاح دعوات الأنبياء والمرسلين: «اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (الأعراف: ٥٩) (هود: ٥٠).

والله تعالى يقول: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» (النحل: ٣٦)، ويقول سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء: ٢٥)، فالتوحيد أساس الدعوة إلى الله لأن العلم كله ينبثق من التوحيد: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ» (محمد: ١٩).

فلقمان عليه السلام بدأ بدعوة ولده إلى التوحيد وعدم الإشراف في عبادة الله قبل أن يوجهه إلى بر والديه، وإلى مراقبة الله سبحانه، وإلى إقامة الصلاة، وإلى كثير من الأخلاق الفاضلة، والنهي عن الكبر والتعالي؛ قبل كل ذلك قال له: «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان: ١٣)، فهو يعلم ولده العقيدة الصحيحة أولاً، فإذا صحت العقيدة صحت بعد ذلك كل الأعمال.

وفي هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما يتوافق مع ما قام به لقمان من دعوة ولده إلى التوحيد وعدم الإشراف، كما في حديث عبد الله بن عباس: «يا غلام إنني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده

أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا».

وقد ضرب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المثل البشري الكامل في الحكمة في دعوته إلى الله سبحانه، وفي السنة المباركة عشرات الأمثلة والمواقف التي تبرهن على حكمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما روى البخاري عن أبي هريرة أن أعرابياً بال في المسجد فنار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوه وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء -أو سجلاً من ماء-؛ فإنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين». وفي رواية: «لا تزرموه».

وكذلك موقفه صلى الله عليه وسلم من الشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا كما في حديث أبي أمامة: قال: «إن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ادنه، فدنأ منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتجنبه لأملك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم.. إلى آخر الحديث». قال: فوضع يده على صدره وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء» رواه أحمد وصححه الألباني.

والحكمة المطلوبة في كل الأحوال خاصة في الدعوة إلى الله سبحانه؛ فالدعاء إلى الله هم ورثة الأنبياء والمرسلين والموقعين عن الله

رب العالمين؛ فوجههم إلى الحكمة في دعوتهم إلى الله قائلاً: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (النحل: ١٢٥).

وليكن للدعاة في رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم وسلم الأسوة والقدوة فقد دعا إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان رفيقاً في دعوته إلى ربه، وأخبرنا «أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». رواد مسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه». رواد مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ» رواد مسلم. وفي الحديث المتفق عليه قال صلى الله عليه وسلم: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا». وقد زكى الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم في علاقته بأصحابه وإخوانه فقال عنه: «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩).

فالحكمة خير عظيم، وعطاء عظيم من الله لمن يشاء من عباده. فتسأله سبحانه أن يرزقنا الحكمة في الأقوال والأعمال، فهو سبحانه القائل: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» (البقرة: ٢٦٩).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

